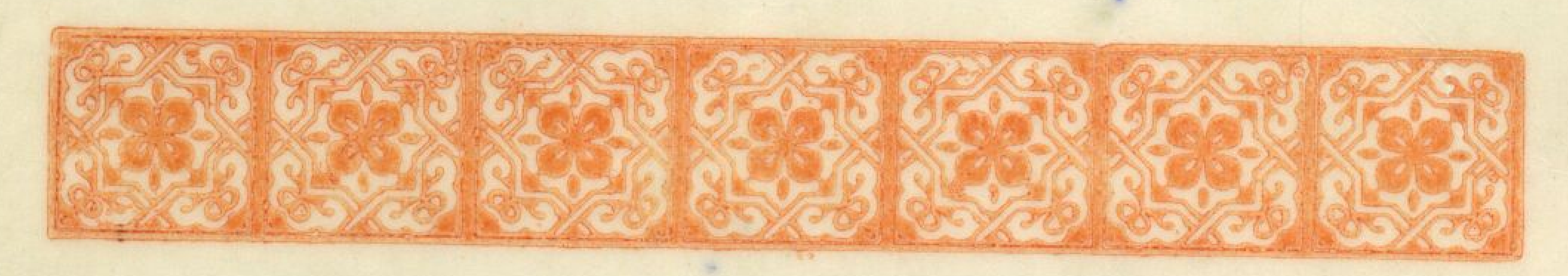
الدكتور محمد البهي



الغزالي

فلسفته الأخلاقية والصوفية





يطلب من : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٩٢٧٤٧٠





الدكتور محمد البهى

الغزالى

فلسفته الأخلاقية والصوفية

الطبعة الأولى

رجب سنة ١٤٠١هـ ـــ مايو سنة ١٩٨١م

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

من هو الغزالى ؟ :

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى ، النيسابورى الفقيه الصوفى ، الأشعرى ، قال الحافظ ابن عساكر — وقد ادرك الغزالى واجتمع به — في التأريخ للغزالى : « ولد الامام الغزالى طوس سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٩ م) وحضر مجلس الوزير — السلجوقى —: نظام الملك .. وأشار عليه بالذهاب الى بغداد للقيام بالتدريس فى المدرسة « النظامية » (١٠٩١م) وأصبح امام العراق بعد أن حاز امامة خراسان .

ثم ترك بغداد — بعد اتمام « تهافت الفلاسفة » — وزهد فى الحياة والحشمة ، وأخذ فى التصانيف المشهورة مثل : « احياء علوم الدين » . ثم سار الى القدس ، مقبلا على مجاهدة النفس وتبديل الأخلاق وتحسين الشمائل حتى مرن على ذلك .

ثم عاد الى وطنه « طوس » ملازما بيته ، مقبلا على العبادة ونصح العباد وارشادهم ودعائهم الى الله والاستعداد للدار الآخرة . يرشد الضالين ، ويفيد الطالبين دون أن يرجع الى ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة . وكان معظم تدريسه فى التفسير ، والحديث ،

والتصوف . حتى انتقل الى رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأولى سنة ٥٠٥هـ (١١١٠م) » (١) .

وابن عساكر هنا يصف الغزالى العالم بأنه الفقيه ، والمتكلم على منهج المدرسة الأشعرية ، والصوفى . وانه جمع فى العلم بين امامة خراســان وامامة بغــداد . وخراسان وبغداد كانتا المركزين الرئيسيين للثقافة الاسلامية ، والمدرستين اللتين التقى فيهما الفكر الاسلامى الأصيل ، والفكر الآخر الذى نزح اليهما من الشرق الروحى ، والغرب المتمرد على الروحية اذ ذاك ، والمعتز بالانسان وباستطاعته فهم الحياة والتوجيه فيها . ووصفه بأنه صاحب الامامة فى بغداد ، البلد الذى غدا منتصف القرن الثالث الهجرى مركزا لحركة الصوفية ، ومركز الخصومة العنيفة بين الفقهاء والمتصوفة .

كما يصفه بأنه بعد أن بلغ جاه الإمامة فى العلم ، وفى المنزلة عند الحاكم وعند اخوانه وتلاميذه — خلع هذا الجاه عن نفسه وتجرد عن غيره من مظاهر الدنيا بعد أن درب نفسه ونجح فيما دربها عليه . وفى هذه المرحلة من حياته ، مرحلة التجرد عن زخارف الدنيا والعزلة عن الحياة العامة وجاهها — صور احساسه بالحياة ودون مشاعره النفسية فى كتابه المعروف بـ « احياء علوم الدين » . وحاول أن يحمل الناس على ما رآه من رأى ، وما خطه من طريقة ومنهج للانسان الذى يفتش عن « السعادة » ويبغى العمل على تحقيقها لنفسه .

(١) كتاب بغية القاصدين ص١٧ — ١٩ طبعة الجمالية بمصر ســنة ١٣٢٩ هـ .

حاول ذلك بعمله وفى درسه ولم يفارق هذه المحاولة منذ نزوعه الى التجرد من هذه الحياة حتى يوم وفاته .

والذى يؤرخ للغزالى كصاحب فكرة خلقية ، ومنهج اخلاقى ، يؤرخ للغزالى صاحب كتاب « احياء علوم الدين » وللغزالى صاحب النزعة « التجردية » أو النزعة الصوفية ، يؤرخ للغزالى فى المرحلة الأخيرة من حياته .

* * *

٣ — مقدمة فى الأخلاق كعلم :

وقبل أن نعرض للغزالى كصاحب مذهب ، أو تابع لمذهب اخلاقى — يحسن بنا أن نشير الى الأخلاق كعلم فى صورته العامة ، حتى يمكننا أن نحدد وضع الغزالى كعالم أخلاقى ، وأن نفهمه بأسلوب علمى فيما عرضه من راى ، ووضعه من قانون يرسم به غاية العمل الانسانى والمنهج الذى يحقق الغاية المرسومة ، والمصدر الذى صدر عنه فيما رأى ووضع من قانون .

الأخلاق كعلم مهمتها : وصف سلوك الانسان ، ووضع المبادىء التى تستخلص من سنن الحياة نفسها ، وظروف الوجود والغايات والأهداف التى يمكن التطور اليها ورسم خطة العمل التى بها ينسجم الانسان مع هذه السنن والظروف والغايات التى هى المثل .

ولهذا يحاول علم الأخلاق أن يجيب على هذه الأسئلة :

(أ) أى شىء هو حسن ؟

(ب) كيف يجب علينا أن نعمل ؟

(جـ) لماذا يجب علينا أن نعمل على هذا النحو دون ذلك ؟

وعلم الأخلاق هو مجموعة من المذاهب التى تحاول الاجابة عن هذه الأسئلة وتعدد هذه المذاهب اما حسب : المصدر الذى يصدر عنه العالم الأخلاقى فى رأيه . أو حسب الغاية التى يحددها للسلوك الانسانى ..

أو حسب الموضوع الذى يتعلق رأيه به أن كان الفرد أو الجماعة الانسانية كلها ..

١ ــ فبحسب (المصدر) تتعدد المذاهب الأخلاقية الى :

(أ) مذهب المغايرة والتبعية ، وهو المذهب الذى لايرى الانسان نفسه مصدرا لتحديد القيم الأخلاقية والسلوك الانسانى ، بل يربطه فى ذلك بغيره ، يربطه بالله ، والأخلاق الدينية تقوم على هذا الأساس . لأن ما جاء فيها ليس مصدره الانسان نفسه بل مصدره رسالة الوحي . والانسان عندئذ ليس هو المقنن والواضع للمبادىء الخلقية والغاية الخلقية . وانما غيره هو الذى وضع له هذه المبادىء بعد أن حدد له الغاية .

(ب) مذهب الاستقلال وعدم وصاية الغير على الانسان فى تحديد السلوك وهو المذهب الذى يرى أن عقل الانسان كفيل بتحديد التصرفات وتحديد القيم الأخلاقية والغاية الخلقية . والانسان مستقل فى هذا ، وليس بحاجة الى رسالة من وحى السماء . وأفلاطون وارسطو فى فلسفتهما الأخلاقية

اصدرا عن هذه النزعة الاستقلالية وغضا النظر عن أية معرفة دينية — وان لم يسلما فى واقع الأمر من التأثر فى ذلك بعقيدة الاغريق الدينية — ولكنهما اتجها على كل حال هذا الاتجاه الاستقلالى .

(جـ) مذهب الارادة وهو المذهب الذى يرى أن الارادة الانسانية هى التى تصبغ العمل الانسانى بالصبغة الأخلاقية . فما يتفق مع الارادة القوية من الأعمال كان فى نفسه سلوكا فاضلا ، وما يحقق هــذه الارادة كان غاية خلقية . ومذهب الارادة هو المذهب الذى اعتنقه نيتشه وشوبنهور .

هذه بعض المذاهب الأخلاقية تختلف فيما بينها حسب المصدر والمنبع الذى تنتزع منه نظرتها الأخلاقية .

٢ — وبحسب الغاية من العمل الانسانى تتنوع المذاهب الأخلاقية الى ما يأتى :

(أ) مذهب السعادة وهو المذهب الذى يجعل السعادة النفسية كباعث وكغاية لسعى الانسان وعمله .

(ب) ومذهب اللذة الحسية وهو الذى يوجه نشاط الانسان الى تحصيل اللذة الحسية ، عن طريق وصف هذا العمل الموصل الى ذلك بالفضيلة والحسن وواضعه ارستيب **Arstip** من مفكرى الاغريق .

وقد تطــور هذا المذهب الى جعل الغاية من العمــل الانسانى ، ابعاد الضيق والألم ، عن النفس الانسانية وعارضه نيتشه فى هذه الصورة الأخيرة بأن طلب أن تكون

ارادة الانسان ليست وقفا على هذا العمل السلبى ، بل يجب أن تتجه الى عمل ايجابى .

(جـ) ومذهب المنفعة وهو المذهب الذى يتخذ من خير الجماعة ومنفعة الفرد نفسه غاية لعمل الانسان وشعاره : أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد ممكن . ومن بناة هذا المذهب وقادته بينثام Bentham فى القرن الثامن عشر ، وميل Mill فى القرن التاسع عشر .

(د) ومذهب الكمال ، وهو المذهب الذى يحدد غاية العمل الخلقى فى سعة الانسان ونشاطه بتوصيل الانسان نحو الكمال . ومن أصحابه ليبنيز Leaibeniz وكانت Kant وشافتسبرى Shaftesbury

٣ ـ وبحسب الموضوع الذى تتركز فيه النظرة الأخلاقية توجد المذاهب الأخلاقية الآتية :

(أ) مذهب الفرد أو الذات . وهو المذهب الذى يصدر عن الاحساس « بأنا » والتفكير حول « أنا » نفسه ، أى عن الغريزة الأصيلة فى حفظ البقاء فكل عمل من الانسان يوصل الى حفظ بقائه هو عمل خلقى .

(ب) ومذهب الجماعة وهو المذهب الأخلاقى الذى يتخذ من العدالة ومحبة الانسانية عامة غاية أخلاقية لسعى الفرد وعمله .

والآن فى ضوء هذا التحديد للمذاهب الأخلاقة وهى مذاهب مختلفة

وليست كلها مما يتفق ونظرة الدين الأخلاقية ، يمكننا أن نتساءل : أين يوضع الغزالى الآن بين هذه المذاهب أو من هذه المذاهب .

(١) ما هو المصدر الذى صدر عنه فى تحديد السلوك الانسانى والمبادىء الخلقية ؟ أهو الدين .. أم العقل .. أم الارادة ؟ .

(٢) ما هى الغاية الخلقية عنده ؟ أهى سعادة الانسان النفسية ؟ أهى اللذة الحسية ؟ أهى المنفعة ؟ أهى الكمال الانسانى ؟ .

(٣) ما هو الموضوع الذى جعله محل نظرته الأخلاقيـــة ؟ أهو الفرد ، أم الجماعة ؟ .

(٤) ما هى الوسيلة التى رآها كفيلة بتحقيق الغاية الأخلاقيـــة عنده ؟ . أهى سلبية الانسان فى الحياة ومحاولة التجرد والفرار منها ؟ أهى ايجابية الانسان فيها ، ومحاولة السيطرة عليها ؟

ان عرض الأخلاق عند الغزالى فى ضوء هذه الأسئلة يمهد السبيل للحكم عليه من عدة جهات : يمهد السبيل للحكم عليه من موقفه من الدين ـــ الاسلام ـــ ومن طبيعة الحياة ، ومن الفكر الانسانى .

لو جمعنا آراء الغزالى الأخلاقية ـــ كما عرضها فى كتاب الاحياء ـــ ووضعناها فى اطار واحد ، لبدا بينها عدم الانسجام ، على الأقل فى اعتبار المصدر ، الذى وضح منه تلك الآراء ، فمرة يعتمد على الشرع والعقل معا فى توضيح هذه الآراء ، ومرة يعتمد على الشرع والالهام معا أيضا ، ويلغى العقل فى شرحها وبيانها ، حافظ على الشرع ، ولكنه تردد بعد ذلك بين اعتبار العقل واعتبار الالهام والتبصيرة . وكان لابد

ان يحافظ على الشرع دائما لأنه عالم مسلم وامام مسلم ، ثم بعد ذلك يقر العقل بجانبه أن الف الفكر الاغريقى واحتضن النظرة الأفلاطونية او النظرة الأرسطية او هما معا فى تحديد القانون الأخلاقى . وقد نراه ينكر العقل وقيمته ويدير وجهه الى النظرة الصوفية فيأخذ بما تراه مصدرا للمعرفة وهو الالهام ، بديلا عن العقل وهو الفكر الاغريقى فى نظـــره .

الغزالى مردد بين اسلام وفكر اغريقى . ونظرة صوفية فى آرائه الأخلاقية ... الغزالى مردد هنا بين الوحى .. والعقل .. والالهام . وكلها مصادر مختلفة ، وكثيرا مايتقابل بعضها مع بعض أو يضـــاد بعضها بعضا . الوحى لايضاد طبيعة العقل كعقل ، ولكنه قد يضاد عمل مفكر وقع تحت تأثير عوامل اخرى بعيدة عن اعتبار العقـــل الخالص والغزالى عندما نقول انه اعتمد على العقل نعنى بذلك انه اعتمد فى الأكثر على الفكر الاغريقى ، وهنا كثيرا ماتضاد رسالة الوحى فى الاسلام تفكير فلاسفة الاغريق .

الوحى رسالة الهية . تبليغ من الله عن طريق الملك الى الرسول المصطفى فلها القداسة والعصمة . والعقل طبيعة بشرية يجول به الانســـان فيما يتحرك فيه ويتأثر بما يتاثر به الانسان فى بيئته . والالهام تجل وكشف من الانسان للحضرة الالهية يهيىء له أن ينقل مشاهدته هناك بما لايقف عليه الانسان العادى الذى لم يصل الى حال الكشف والتجلى .

والرسول هو الذى أوحى اليه عن قصد ، وكلف بتبليغ ما أوحى اليه ومهمته التبليغ وليست وضع الرسالة . والمفكر مستقل اعتمد

على عقله الانسانى فيما يراه ، وهو عرضة للخطأ والصواب لأنه انسان . والملهم انسان مستقل أيضا إعتمد على المجاهدة النفسية والرياضة الروحية ، حتى يصل الى مايسميه حال « الكشف » . وهو اذ يخبر عما يشاهده هناك فى العالم العلوى ، يخبر كانسان ليست له عصمة ، وليس لما يذكره وجه اليقين ، الفيلسوف والملهم اذن كلاهما أنسان يحاول المعرفة ، ذاك باعمال فكره ، وهذا بمجاهدة نفسه ، وكلاهما عرضة للخطأ فيما يرى أو فيما يحكى .

والرسول وحده هو المعصوم ، ولقوله صفة الحق دائما لأنه منزل عليه ومبلغ اياه ، وليس مايبلغه ثمرة لمجهوده الفكرى أو النفسى .

ولأن الغزالى جمع فى آرائه الأخلاقية بين الشرع الذى هو رسالة الوحى بين الفكر الاغريقى مرة ، ثم بين الشرع والالهام مرة أخرى، رأينا أن نعالجه فى هذه الآراء الأخلاقية تحت عنوانين . تحت عنوان :

(١) الغزالى كفيلسوف فى أخلاقه ، وتحت عنوان آخر :

(٢) الغزالى كمتصوف فى أخلاقه .

وبذا يمكن أن نخفف من فجوة التضاد التى قد تدركها فيما لو نظمنا جميع آرائه فى سلسلة واحدة ووضعناها فى اطار واحد .

* * *

٢ — الغزالى كفيلسوف فى أخلاقه :

فى القسم الأول — ربع العبادات وربع العادات — من قسمى كتاب الاحياء الرئيسيين يبدو الغزالى الفيلسوف الأخلاقى ، الذى أضاف الى الفكر الاغريقى ما فى الاسلام من معاملة بين العبد وربه ،

وبين العبد والخلق ، وهى المعاملة التى عنى بها فقهاء المسلمين من قبل ، وان كان فى عرضه اياها حاول أن يبرز أسرارها فى ضوء البحوث النفسية والسياسية والاجتماعية التى أثرت عن مدارس الاغريق ، وبالأخص عن مدرستى أفلاطون وأرسطو .

هنا عالج الغزالى ثلاث نقط ، تعد عادة قوام أى مذهب خلقى . عالج :

(أ) الفضيلة . وما هى ، ومتى تكون الفضيلة فضيلة ؟ .

(ب) عالج السبيل لبلوغ الفضيلة . ما هو ؟ .

(جـ) عالج الغاية الأخلاقية من تحصيل الفضيلة والسلوك طبقا لحدودها .

وفى كل نقطة من هذه النقط ربط بين الشرع والعقل ، كما ذكرنا .

(أ) الفضيلة .. ما هى :

عرف الفضيلة مرة بأنها العقل المحمود عقلا وشرعا ، وحدد المحمود بأنه : « الوسط » . كما وصف الطرفين اللذين يقع بينهما هذا الوسط بأنها رذيلتان مذمومتان . يقول فى ذلك : « والمحمود عقلا وشرعا هو الوسط ، وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان مذمومتان » . ويحددها مرة أخرى بأنها « اعتدال » أركان النفس الأربعة . وأركان النفس عنده هى قواها ، وهى : قوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة الحكمة ، والعدل ، ويقول فى هذا : « وحسن قوة الغضب واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة ، وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة فان مالت قوة الغضب عن الاعتدال الى طرف الزيادة تسمى تهورا ، وان مالت الى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا . وان مالت

قوة الشهوة الى طرف الزيادة سميت شرها ، وان مالت الى النقصان تسمى خمودا . وأما الحكمة فيسمى افراطها عند الاستعمال فى الأغراض الفاسدة خبثا ، ويسمى تفريطها بلها ، والوسط هو الذى يختص باسم الحكمة . والعدل ، اذا فات فليس له طرفان : زيادة .. ونقصان . بل له ضد واحد ومقابل : وهو الجور .

واذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة . والشجاعة .. والعفة . والعدل . والباقى فرعها ... كما يقول :

« فاذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت ، حصل حسن الخلق ، وهى : قوة العلم — قوة الغضب — قوة الشهوة — قوة العدل بين هذه القوى الثلاث . أما قوة العلم حسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال وبين الحق والباطل فى الاعتقاد ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال . فاذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة ، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة ، وهى التى قال الله فيها : ((**ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا**)) (١) . وأما قوة الغضب فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها فى حد ما تقتضيه « الحكمة » . وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت اشارة الحكمة ، أعنى اشارة العقل والشرع . وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت اشارة العقل والشرع « الحكمة » . فالعقل مثاله مثال الناصح المشير . وقوة العدل هى القدرة ومثالها مثال المنفذ الممضى لاشارة العقل . والغضب هو الذى تنفذ فيه الاشارة . ومثاله مثال كلب الصيد ، فانه يحتاج الى أن يؤدب

---

(١) البقرة : ٢٦٩

حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الاشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس والشهوة مثالها مثال الفرس الذى يركب فى طلب الصيد فانه تارة يكون مروضا مؤدبا ، وتارة يكون جموحا .

فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا ، ومن اعتدلت فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالاضافة الى ذلك المعنى ، .. خاصة كالذى يحسن بعض أجزاء وجهه دون البعض .

الغزالى هنا فى غاية اللباقة وحسن العرض والتصوير . جمع بين تحديد أرسطو وأستاذه أفلاطون للفضيلة ، فمأثور عن أرسطو أنه يحددها بالوسط بين طرفين مذمومين ، ومشهور عن أفلاطون أنه يحددها بالعدالة أو الاعتدال بين قوى النفس الثلاث ــ لا الأربع كما ذكر الغزالى هنا ــ قوة الشهوة ، وقوة الغضب ، وقوة الحكمة . أما قوة العدل التى زادها الغزالى هنا ــ فلم تعرف لأفلاطون الا على أنها التوازن بين هذه القوى الثلاث وليست قوة مقابلة لها أو لاحداها . والتوازن هذا هو الفضيلة . والتوازن لايتم عنده الا اذا كانت الحكمة مسيطرة على القوتين الأخريين . قوة الغضب والشهوة .

لباقة الغزالى هنا فى التصوير وسهولته ، وضرب المثل لتوضيحه ، ومحاولته أن يعد « العدل » قوة رابعة للنفس ، زيادة عما عرف لأفلاطون .

على أنه بعد ذلك فى مزاوجته بين الفكر الاغريقى والدين هنا لم يستطع أن يبين على وجه التحديد مكان الشرع من الحكمة عندما شرح فى هذا النص اشارة الحكمة بأنها اشارة العقل والشرع معا . بل عندما أراد أن يوضح اشارة الحكمة التى يجب أن تقع تحتها قوتا الغضب ..

والشهرة عندما يوصفان بالفضيلة والحسن . عندما أراد ذلك سار مع العقل وحده ، وجعله مثال الناصح المشير ، وترك الشرع كلية مع أنه جعله والعقل مضمون الحكمة .

واقع الأمر أنه ساوق أفلاطون فى هذا الاسترسال ، واكتفى بأن لل على أن الحكمة كقوة من قوى النفس جاء بها القرآن الكريم فى وله : ((**ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا**)) فان اكتفى الآن شرحها بالعقل ، فقد سبق أن بين منزلتها من الشرع على هذا النحو . إذن الشرع والعقل ((أى الفكر الاغريقى)) اجتمعا عند الغزالى فى حديده للفضيلة .

ولكن متى يكون عمل الوسط — الذى هو محمود شرعا وعقلا — فضيلة ؟ متى يكون الاعتدال بين قوى النفس فضيلة ؟ يجيب الغزالى على ذلك بأنه لايكون فضيلة الا اذا كان صادرا عن خلق . ويقول فى شرح الخلق : ((والخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة الى فكر وروية . فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة ، سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا . وانما قلنا هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لايقال : خلقه السخاء ، مالم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ . وانما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لايقال : خلقه السخاء والحلم . فههنا أربعة أمور :

(١) فعل الجميل والقبيح .

(٢) القدرة عليهما .

(٣) المعرفة بهما .

(٤) هيئة للنفس تميل الى أحد الجانبين ويتيسر عليها احد الأمرين ، اما الحسن أو القبح .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولايبذل لفقد المال أو لمانع .

وليس هو عبارة عن القدرة لأن نسبة القدرة الى الامساك والاعطاء واحدة .

وليس هو المعرفة ، فان المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد .

بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، وهو الهيئة التى تعد النفس لأن يصدر منها الامساك والبذل ، فالخلق اذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ...

وهذا مايقوله الغزالى فى تحديد الفضيلة ، ومتى تكون الفضيلة

(ب) ما السبيل الى بلوغ الفضيلة : ؟

أما السبيل الى تحصيل الفضيلة وبلوغها فى سلوك الانسان كما يراه الغزالى فهو رياضة النفس مع العبادة . فليس العبادة وحدها بكافية ، بل لابد معها من الرياضة النفسية حتى يكون أداء العبادة مع

رغبة ومحبة ، لا مع استثقال وكراهية . وليست الرياضة أيضا وحدها بكافية ، بل لابد معها من العبادة ، لأن المقصود بالعبادة التأثير على القلب . وبدون العبادة لاتؤثر الرياضة على القلب ، وان كانت تيسر على الانسان اتيان العمل . فالرياضة والمجاهدة مع العبادة معا ينشأ عنهما رقة القلب وصفاؤه مع يسر ورغبة فى اتيان العمل الفاضل ، يقول فى ذلك :

«والرياضة حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب، فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجواد وهو بذل المال . فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه متكلفا مجاهدا نفسه فيه،حتى يصير ذلك طبعا له ، ويتيسر عليه فيصير به جوادا ... ولن ترسخ الأخلاق الدينية مالم تتعود النفس جميع العادات الحسنة ، ومالم تترك جميع الأفعال السيئة ، ومالم يواظب عليها مواظبة من يشتاق الى الأفعال الجميلة ، ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ، ويتألم لها كما قال صلى الله عليه وسلم : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .. ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال لهو النقصان .. وانما المقصود بالعبادة تأثيرها فى القلب ، وانما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات » .

فهنا فى السبيل والطريق الذى رآه الغزالى موصلا لتحصيل الفضيلة امسك بطرف من الدين وطرف آخر من العقل . ربط العبادات فى صورتها الاسلامية بمنهج تكوين العادة فى الانسان ، وهو ماسماه الرياضة النفسية والمجاهدة الروحية . وأولى مراحل تكوين العادة فى منهج تكوينها ادراك العقل لما يطلب أن يكون عادة للانسان وحمل النفس بالارادة على الاتيان به ، ثم بعد تكراره يصبح عادة ويستغنى عندئذ

عن الادراك والارادة . فهو قد ربط هنا بين الدين والعقل ، كما أوضح أن كلا منهما يتوقف عليه الطريق السليم لتحصيل الفضيلة .

نعم هو وان ربط بين الدين والعقل فى ذلك ، وجمع بين العبادة والمجاهدة الا أنه أسهب كثيرا فى آثار المجاهدة ، وفيما تستطيع أن تأتى به من تكوين العادات المطلوبة ، والاقلاع عن العادات الأخرى غير المرغوب فيها . ولعله كان يعرف أن قبول العبادة أيسر لدى النفوس من محاولة الرياضة والمجاهدة ، بحكم أن العبادة دين وقد استقر أمره فى النفوس باعتبار أنه عقيدة . أما الرياضة فلأنها متكلفة أول الأمر قد يحجم عنها الناس لسبب ولغير سبب . ولذلك نراه فى غير موضع يبسط أولا امكان الرياضة . وثانيا : النتائج الحتمية التى تأتى بها . فمثلا يقول : « واعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة ، والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخيلته فزعم أن الأخلاق لايتصور تغييرها ، فان الطباع لاتتغير . واستدل فيه بأمرين أحدهما : أن الخلق هو صورة الباطن ، كما أن الخلق صورة الظاهر (١) . فالخلقة الظاهرة لايقدر الانسان على تغييرها ، فالقصير لايقدر أن يجعل نفسه طويلا ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته . فكذلك القبح الباطنى يجرى هذا المجرى . والثانى : أنهم قالوا حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب . وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة ، وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فانه قط لاينقطع عن الآدمى . فاشتغاله به تضييع وقت بغير فائدة . فان المطلوب هو

(١) الخلق : الأولى بضم الخاء والثانية بفتحها .

قطع التفات القلب الى الحظوظ العاجلة ، وذلك محال وجوده . فنقول : « لو كانت الأخلاق لاتقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسنوا أخلاقكم » .. وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى ، وتغيير خلق البهيمة ممكن .. اذ ينقل البازى من الاستيحاش الى الأنس ، والكلب من شره الأكل الى التأدب والامساك والتخلية ، والفرس من الجماح الى السلاسة والانقياد . وكل ذلك تغيير للأخلاق . » ..

والى هنا عالج الفضيلة فى معناها ووسيلة تحصيلها على أساس من الدين والعقل لم يفرط فى واحد منهما ، وكذلك انتقلنا به الى الغاية من العمل الخلقى ، وهو العمل الذى يوصف بأنه فضيلة ، والذى يترصل اليه بالمجاهدة والرياضة النفسية والعبادة فى صورتها الاسلامية — لو انتقلنا الى تحديد الغزالى لهذه الغاية لوجدناه قد استعان فى ذلك بالشرع ، والعقل أيضا دون أن يهمل واحدا منهما .

(ج) غاية العمل الخلقى :

يقول فى كتابه الاحياء : « وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ، ويرسخ فيها حب الله ، فلا يكون شىء أحب اليه من لقاء الله عز وجل ، فلا يستعمل جميع ماله الا على الوجه الذى يوصله اليه . وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملها الا على الوجه الذى يوصله الى الله تعالى ، وذلك بأن يكون موزونا بميزان الشرع والعقل ، ثم يكون بعد ذلك فرحا به ، مستلذا له .. » .

فالمتعة النفسية والتلذذ الروحى حلقة أخيرة فى غاية العمل الخلقى عند الغزالى . وقبل هذه الحلقة حلقة مباشرة ، هى أن يغلب على

النفس حب الله دون حب الدنيا ، والا يكون شيء أحب اليها من لقاء الله . أو أن احداهما مقدمة والأخرى نتيجة لها . وغاية العمل الخلقي اذن عنده مجموعهما ، وهو المتعة النفسية بلقاء الله وهو اذن فى غائيته من أصحاب السعادة النفسية . وأمارة تحقق هذه السعادة عنده أن يكون موزونا بميزان الشرع والعقل . وهو لهذا فى المصدر الذى يصدر عنه يدعو الى الاستقلال وعدم الاستقلال ، هو دينى وعقلى .

ويشرح الغزالى امكان تحقق هذه الغاية بأسلوبه المقنع الذى اعتاده وهو أسلوب التشبيه والتنظير ، فيقول : « واذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبائح ، فكيف لاتستلذ الحق لو ردت اليه والتزمت المواظبة عليه بل ميل النفس الى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع ، يضاهى الميل الى أكل الطين . فقد يغلبه على بعض الناس ذلك بالعادة . فأما ميله الى الحكمة وحب الله ومعرفته وعبادته ، فهو كالميل الى الطعام والشراب ، فانه مقتضى طبع القلب فانه أمر ربانى ، وميله الى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته ، وعارض على طبعه . وانما غذاء القلب : الحكمة والمعرفة ، وحب الله عز وجل .. » .

الى هنا وقفنا على الغزالى الفيلسوف فى أخلاقه فى صورة اجمالية . وجدنا مذهبه بأنه يسعى الى وضع سعادة الانسان النفسية كغاية للعمل الخلقى ، وأنه يعتمد على مصدرين متقابلين فيما رأى هنا وهناك فى تحديد الفضيلة ، والوسيلة الى تحصيلها ، لم يتخل عن ضروب العبادة فى الاسلام ، كما لم يغمط شأن الفكر الأفلاطونى والأرسطى فى دعائم المذهب الخلقى عنده : وهو قائم الآن على الفضيلة والوسيلة ـــ والغاية .

٤ ـ الغزالى كمتصوف فى أخلاقه :

لم يفترق الغزالى المتصوف فى أخلاقه عن الغزالى الفيلسوف الأخلاقى فى اعتبار الدين كمصدر لآرائه الأخلاقية هنا عندما مال الى التصوف وجنح عن الفكر الفلسفى بقى اعتبار الدين عنده كما هو ، الذى تغير فى الاعتبار والنظر هو العقل هجره هنا ، واستعاض عنه بالالهام الصوفى . ولعل منهجه فى البحث الأخلاقى كله سار على منهج الفلاسفة الاسلاميين قبله كالفارابى وابن سينا . وهو الابتداء بالمنطق والاعتماد عليه عند الدخول فى البحث ، حتى اذا قارب هذا البحث الانتهاء ، أغفل المنطق والعقل وحل محله ذلك الالهام أساس التصوف ودعامته .

هنا فى الجانب الصوفى فى أخلاق الغزالى يكاد يقصر بحثه على الالهام ونتائجه ومقدماته . ومعنى ذلك أنه بجانب الدين يضع الالهام : أما الحديث عن الفضيلة وحدودها ، وغاية العمل الخلقى ، فان تعرض له تعرض بالبحث لا بالتغيير والمخالفة عن ذى قبل .

(أ) اهتم بالالهام فقال : « اعلم أن من انكشف له شىء ولو الشىء اليسير بطريق الالهام والوقوع فى القلب من حيث لايدرى ، فقد صار عارفا بصحة الطريق ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغى أن يؤمن به ، فان درجة المعرفة به عزيزة جدا ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات . أما الشواهد فقوله تعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** » (١) .. فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهو بطريق الكشف

---

(١) العنكبوت : ٦٩

والالهام . وقال صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ، ووفقه فيما يعمل ، حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ، ولم يوفق فيما يعمل ، حتى يستوجبه النار » .. وقال تعالى : **« ومن يتق الله يجعل له مخرجا »** (١) — من الاشكالات والشبه — **« ويرزقه من حيث لايحتسب »** (٢) — يعلمه علما من غير تعلم ، ويفطنه من غير تجربة » « .. وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « العلم علمان فعلم باطن فى القلب ، فذلك هو العلم النافع » « وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ماهو ؟ فقال : هو سر من أسرار الله تعالى ، يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبائه ، لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا » ..

(ب) وبعد أن حدد الالهام على هذا النحو وبين أنه علم بدون تعلم يقع فى القلب من حيث لايدرى صاحبه ، وأنه لذلك مغاير للعلم المكتسب ، وهو الذى يحصله الانسان عن طريق عقله وحواسه — بعد ذلك دلل على وقوعه وعلى أنه حقيقة لاتنكر ، وأن الوحى الذى هو الشرع مؤيد له وشاهد عليه على نحو ما فسر بعض آيات القرآن الكريم . وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام .

ثم أوضح أن السبيل اليه هو رياضة النفس ومجاهدتها وورعها وتقواها .. « والسبيل الى التعليم اللدنى : **« وعلمناه من لدنا علما »** (٣) المجاهدة : والورع والاعراض عن شهوات الدنيا ، وقال بعض العلماء : يد الله على أفواه الحكماء لاينطقون الا بما هيأ الله لهم منه

---

(١) الطلاق : ٢ (٢) الطلاق : ٣
(٣) الكهف : ٦٥

الحق وقال آخر : لو شئت لقلت « ان الله يطلع الخاشعين على بعض سره » ..

والغزالى هنا فى أخلاقه الصوفية يمعن فى المجاهدة ورياضة النفس، والاعراض عن الدنيا . والقسم الثانى من القسمين الرئيسيين لكتابه « احياء علوم الدين »خصصه . فهذا الجانب ، خصصه لما يجب أن يكون عليه الذى يجاهد نفسه ويروضها ، حتى يصفو قلبه ويقذف فيه من حيث لايدرى بنور الكشف والالهام .

وهذا الذى يجب أن يكون عليه مجاهد النفس فى نظر الغزالى أمران :

(١) الأمر الأول : أن يتخلى عن الدنيا ومباهجها تماما . ويصور ذلك فيما كتبه عن ذم الدنيا ، وذم المال والبخل ، وذم الجاه والرياء .

(٢) الأمر الثانى : أن يسعى الى الفقر والزهد ، ومراقبة النفس ومحاسبتها والتفكير فى ذات الله سبحانه وتعالى ، وتذكر الموت . وسمى الجانب الأول بالمهلكات ، وسمى الثانى بالمنجيات .

وبين فى كثير من الوضوح والتفصيل الطريق العملى لكل صفة يجب أن يتخلى عنها المجاهد ، وكل صفة أخرى يجب أن يسعى اليها المجاهد مما يدل على عمق صلته بالحياة ، وكثرة تجاربه فيها ، وسعة فهمه للنفس وأحوالها وعاداتها .

وبعض الطرق التى يشير بها الغزالى لتحقيق مجاهدة النفس ورياضتها لو يشار به اليوم لعد غريبا غير مفهوم : فمثلا يشير على من

عنده مال — والمال مطلوب التخلى عنه — أن يدفع به الى الخيرات ، وعلى من هو متكبر أن يخرج للأسواق والأماكن العامة للسؤال . يطالب من صاحب المال أن يتخلى عنه ، ويطلب من المتكبر أن يتسول حتى تتحقق عنده مجاهدة النفس وحتى ترتاض نفسه ، فيصفو قلبه ويعد عندئذ للالهام والكشف يقول : « .. فان رأى الشيخ مع المريد — المريد طالب المجاهدة ، والشيخ هو موجهه — مالا فاضلا عن قدرة ضرورته أخذه منه وصرفه الى الخيرات ، وفرغ قلبه منه حتى لايلتفت اليه ، وان رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج الى الأسواق للسؤال ، فان عزة النفس والرياسة لاتنكسر الا بالذل ، ولا ذل أعظم من ذل السؤال ، فيكلفه بالمواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعزة نفسه ، فان الكبر من الأمراض المهلكة .

كما قد يوجب على الانسان الذى اعتاد النظافة وشغل بها والتفت اليها أن يمارس أعمال النظافة فى دورات المياه أو فى المطبخ أو فيما شاكل ذلك . يقول : وان رأى — الشيخ — الغالب عليه النظافة فى البدن ، ورأى قلبه مائلا الى ذلك فرحا به ملتفتا اليه ، استخدمه فى تعهد بيت الماء وتنظيفه ، وكنس المواضع القذرة وملازمته المطبخ حتى تتشوش عليه رعونته فى النظافة .

ولكن من الوجهة النفسية فى تكوين العادات — والرياضة وسيلة لتكوين العادة — مايشير به الغزالى سليم كل السلامة . فمن يريد أن يقلع عن التدخين لاينتظر حتى ينتهى من تدخين مايملكه بل عليه فى الحال أن يتخلى عنه ، ومن يريد السير كوسيلة لتخفيف سمنته لاينتظر حتى يرصف الطريق أو تظلله الأشجار ، بل عليه أن يتحمل مشقة السير ليصل الى غايته ، وهكذا ..

(جـ) الأمر الثالث الذى تحدث عنه هنا فى أخلاقه الصوفية بعد حديثه عن طبيعة الالهام ووسيلته من الرياضة والمجاهدة ، على نحو ما ذكر من وجوب التخلى عن المهلكات والسعى الى المنجيات — هو نتائج الالهام والكشف . وهو فى هذا يعرض لانكشاف الوجود على حقيقته للانسان ، ثم ما يمكن للانسان عندئذ أن يعرفه من الأسرار التى تغيب على غيره ممن لم يصل الى هذه الدرجة من الكشف والتجلى وهذه الأسرار هو مايعبر عنه بالكرامات ، اذا تحدث عنها صاحب الكشف ووقعت فى هذا الوجود .

والانسان اذا وصل الى درجة الكشف وتجلت له ذات الله سبحانه وتعالى عندئذ تتم سعادته ، وتتحقق متعته .. والسعادة التى وعد الله بها المتقين هى المعرفة والتوحيد . والمعرفة هى معرفة الربوبية المحيطة بكل الموجودات ، اذ ليس فى الوجود شىء سوى الله تعالى وأفعاله ، والكون كله من أفعاله ، فما يتجلى من ذلك للقلب هو الجنة بعينها عند قوم ، وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق وتكون سعة نصيب الانسان من الجنة بحسب سعة معرفته ، وبمقدار مايتجلى له من الله وصفاته وأفعاله .

والآن عند الغزالى : الناس فى المعرفة والايمان ثلاثة أصناف : « .. ان المعرفة والايمان ثلاث مراتب : المرتبة الأولى ايمان العوام وهو ايمان التقليد المحض . والثانية ايمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ، ودرجته قريبة من درجة ايمان العوام ، والثالثة ايمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين ، .. » .. وينقل ابن خلدون عن الغزالى : « ان هذا الكشف لايكون صحيحا كاملا عنده .. الا اذا كان ناشئا عن الاستقامة — العبادة — لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع

والخلوة وان لم تكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين ، وليس مرادنا الا الكشف الناشىء عن الاستقامة . ومثاله : أن المرآة الصقيلة اذا كانت محدبة أو مقعرة وحوذي بها جهة المرئى فانه يتشكل فيها معوجا على غير صورته ، وان كانت مسطحة تشكل فيها المرئى صحيحا . فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الأحوال .

الى هنا انتهى الغزالى فى أخلاقه الفلسفية والصوفية .

* * *

٥ ـ الغزالى كما أرى :

اما بعد : فالغزالى في اخلاقه أولا وأخيرا ، فيلسوفا ومتصوفا ان فتشنا عن « محور » ترتكز عليه نظرته الأخلاقية ، ويدور حوله كل ماكتبه باسم الأخلاق أو علم الوجدان أو علم الباطن ـ لوجدنا هذا «المحور» فى مجاهدة النفس ورياضة الروح ، ولوجدنا أن هذا «المحور» يسبقه أساس هو تمهيد له ، وتعقبه غاية هى نتيجة له . أما الأساس فخطوتان : العبادة والاستقامة . وذلك بالعمل بما جاء فى الشرع من كتاب وسنة من جانب ، ثم الحرص على تنحية العوائق فى سبيل صفاء النفس من مال وجاه ، مع الحرص أيضا على تحصيل المنجيات من زهد ومحاسبة للنفس ومراقبة لها وتفكر فى ذات الله وتذكر للموت ، من جانب آخر .

وأما الغاية فى صفاء النفس والقلب ـ وعند صفاء القلب يتجلى للانسان الوجود على حقيقته ، وحقيقة الوجود هى الربوبية وآثارها فالوجود ليس الا الله تعالى وأفعاله . وعندما تصل معرفة الانسان الى هذه الدرجة تتمتع نفسه وتقيم على متعتها هذه ، لأن ذلك هو النهاية .

استخدم بعد ذلك الشروح النفسية للفكر الاغريقى ، استعان بتجاربه فى الحياة وخبرته فى جاهها وعرضها ، فسر بعض آيات القرآن على وجه خاص ، اعتمد على بعض أحاديث لم يحقق سندها ، كل ذلك أتى به لتوضيح فكرته وليقنع بمنهجه ، أنه صاحب مذهب أخلاقى ، أملته عليه ظروف الحياة التى عاش فيها . عاش فى الكفاح والخصومة ، وعاش فى جاه الحظوة والامامة ، ولكنه رأى الناس متهالكين على جاه الدنيا وعرضها أكثر من ايمانهم بقيمة المبادىء والفضائل . وبما أنه قد عاش فى حظوة السلطان ، وفى امامة العلم والمعرفة ، وخبر ما لهذه وتلك ، هاله أن يرى تهافت الناس على ذلك تاركين القيم الحقيقية وهى قيم المبادىء والفضائل . والمبادىء والفضائل وراء الجاه والمال ، وراء جاه السلطان وجاه العلم ، وراء المال والاعتماد عليه . هى فى ذات الانسان هى فى الاستغناء عما يذله ، ويحركه ذات اليمين والشمال ، هى فى التزام النفس عدم التعلق بالدنيا .

لهذا قام مذهبه على عدم التعلق بالدنيا ، واضطر بعد ذلك لأن يوضح كيف لايتعلق الانسان بالدنيا وهو فيها ، كما اضطر لأن يبين كيف يستعيض عن لذة الدنيا بلذة أخرى هى أبقى ، ان قاوم تعلقه بالدنيا وانتصر على اغرائها وتلك هى : لذة انكشاف عالم الربوبية له .

الغزالى فى مذهبه الأخلاقى متجاوب مع تطوره ، ومتجاوب مع حياته وصدى لأحاسيسه التى كونها عن جماعته فى وقته . رأى أن المنهج الذى وضعه لسلوك الانسان هو المنهج الذى يجنبه الذلة فى الحياة ، والتردد بين مغرياتها ومفاتنها .. هو الذى يجنبه الشعور باللذة المؤقتة — وهى لذة الدنيا — والألم بعد ذلك عند فقدها . الغزالى فى مذهبه الأخلاقى قوم « ارادة » الانسان وجعلها هى الانسان

نفسه . فعندما يطلب مجاهدة النفس ، يطلب أن تستخدم ارادة الانسان وأن يكون موضوع استخدامها هو ذاته ونفسه .

الغزالى بعد ذلك لم يشأ أن يجارى الناس فى مباشرتهم للعبادة على النحو الذى يباشرونها عليه فى وقته ، بل أراد أن يباشرها على نمط آخر ، أراد أن يباشرها على نمط يجعل لها أثرا على قلبه . « وانما مراد الطاعات كلها وأعمال الجوارح تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه — كما يقول فى كتاب الاحياء » . — وهذا النحو من ممارسة العبادة فى وقته لم يكن موجودا ، بل الذى كان موجودا أداء العبادة وفقا للأجزاء والامتثال من نظر الفقه والفقهاء . لذلك بحث الصلة بين أنواع العبادة وآثارها على النفس ، وسأل عن نتائجها فى تطهير القلب ، وعنى بمحاسبة النفس على ذلك .

عيب على الغزالى فى مذهبه الأخلاقى انه :

(١) أفرط فى طلب مجاهدة النفس ورياضتها وفيما اشترطه لذلك من ترك الدنيا كلية .

(٢) وبلغ فى آثار الرياضة النفسية وحال الكشف والمشاهدة .

عيب عليه ذلك من وجهة نظر الاسلام ، لأن الاسلام وأن لم يجعل الدنيا هدف الانسان ، لكنه طلب الاستعانة بها فى تحقيق غايته الأخيرة . بل جعلها محل اختبار المؤمن ، وذلك معناه عدم الانصراف عنها تماما ، والا لما تحقق الاختبار والامتحان بها .

وكذلك المبالغة فى آثار الرياضة النفسية من الكشف والمشاهدة

قد تجر الى احداث الفتنة وانقسام الجماعة ، لأنه ليس بمأمون أن يحترف بعض أدعياء الرياضة والكشف بما يسمونه أسرار الهيئة وذلك أمر لا ضابط له . يقول ابن الجوزى فى كتابه « تلبيس ابليس » « ان التصوف رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع ، برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الاخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق ، الى غير ذلك من الخلال الحسنة التى تكسب المدائح فى الدنيا والثواب فى الآخرة ... هذا ما كان عليه أوائل المتصوفة حتى لبس الشيطان عليهم ، فكان أول تلبيسه أن صدهم عن العلم ، وأراهم أن المقصود العمل ، فلما انطفأ مصباح العلم تخبطوا فى الظلمات ، فمنهم من غلا فى ترك الدنيا ، وهى قوام مصالح الخلق ، ومنهم من أغرى بتعذيب النفس بالجوع والعرى ، والفقر الاختيارى ، ومنهم من هام بالسماع ، والوجد ، والرقص ، ومنهم من غلبت عليه الخيالات حتى قالوا بالحلول والاتحاد ، وكانوا يعنون بالنظافة والتنطع فى الطهارة ، وراجت عليهم لقلة العلم بالأحاديث الموضوعة .

* * *

ان الغزالى تتجلى أصالته الفكرية واعتداله فى المزاج فيما كتبه فى الفقه واصول الفقه ، ويتجلى جدله وقوته فى الحجة والخصومة العقلية فيما واجه به الفلاسفة من نقد لما رأوه أو قبلوه عن غيرهم ، وتتجلى سعة اطلاعه ووقوفه على أحوال النفس للأفراد والجماهير ومعرفته بأسلوب الاقناع ، وخاصة فى فن التمثيل والتشبيه ، فيما كتبه لترغيب الناس فى الزهد ومجاهدة النفس .

لولا سلبية الغزالى العنيفة فى مذهبه الاخلاقى لطالبنا بتطبيقه

فى حياتنا الراهنة حيث سادت المادية ، واكتسحت العالم موجتها الطاغية ، وأحدثت من القلق والاضطراب ماندرك فى كل مكان آثاره .

نحن أفرادا وشعوبا وجماعات فى حاجة الى رياضة النفس ، وصفاء القلب لنكون اخوانا متحابين نقدر المثل لذات المثل ، والانسانية لما فيها من معان فاضلة ، ولكن فى أسلوب أخف مما فرضه الغزالى على نفسه ومريديه .

... والله الموفق .. وهو المستعان .

* * *

محتويات الكتاب

رقم الايداع / ٢٨٥٥ / ٨١

الترقيم الدولى ٦ ـــ ١٥ ـــ ٧٣٣٥ ـــ ٩٧٧

1.070
92
119b